مجلة الرائد

العدد : ٢٤٨ الموافق في صفر ١٤٢٥ هجري ٢٠٠٤/٤ ميلادي

عنوان المقال : ١٤٢٥ هجري	بقلم : يمان السباعي

لم يشكل هذا الرقم أية إشكالية للكثير منا ، ولم يقف كثيرون عنده مجرد وقفة تفكير أو حساب ، هذا الرقم اليتيم المضيع الذي يمثل حساب تقويم حياة ، وتاريخ أمة تزف قهراً وهي تبدو – وأقول تبدو – وكأنها في نزعها الأخير .

عجبت أن يُحتفل في بعض دول العالم الغربي ببداية العام الصيني الجديد ، وأن تنقل كل قنوات الإعلام الغربية أنباء احتفال اليهود بعامهم العبري ، وكذلك جميع أمم الأرض ، وليس إلا عامنا الذي يحيي ذكرى حادثة الهجرة التي يسجل التاريخ – تاريخ خصومنا – بأنها الأكثر أهمية في تاريخ البشرية جمعاء .

تاريخنا الذي ملّ منا وملّلنا منه ، والذي أصبحنا اليوم عبئا عليه ، متطفلون على موائد الآخرين ، نحتفل بأعوامهم ، نقلد اختراعاتهم المقدسة– التجارية ، ندخل قرونهم التي تبدأ وتنتهي بغزو أرضنا وانتهاك عرضنا ودك حصوننا! .

هل نحن أمة ميتة ؟! أصبحنا عالة على عالم يمور بالحياة والحركة ونحن جاثمون على كنوز الأرض نستمد منها آخر سبب للتشبث بالوجود بين أمم الأرض اليوم ؟.

إجراء مقارنة سريعة وشاملة بين حجم الاهتمام العربي الإعلامي العام بالعام الميلادي والعام الهجري ، تنبئنا عن درجة الوهن الحضاري التي نعيشها اليوم ، وعن الهوة الساحقة التي سقط فيها معظم الذين نصبوا أنفسهم ناطقين باسم هذه الأمة وهم يحاولون ارتداء عباآت الآخرين متخلين عن هوية أمتهم وبصماتها وشكل أنفها وربما لونها وجنسها !،

أحيانا أفكر في "مايكل جاكسون" الذي لم يكن راضياً عن نفسه ولا شكله ولا لونه ، فبقي يغير ويبدل في كيانه الإنساني مادياً ومعنوياً حتى صار أعجوبة ومثلة بين الناس جميعاً وسقط شرّ سقطة في مهاوي تاريخ الإعلام الذي لا يرحم أحدا .

1425عاماً تعني في عمر الحضارات اليوم... شباباً وحضوراً وأملاً وامتداداً ، ولكن وللأسف الشديد فإن الأمة الأكثر شباباً في تاريخ الحضارات اليوم هي الأمة التي بدا وكأن التعب قد سرى في أوصالها ونفوس أبنائها إلى درجة تخليهم حتى عن الوقوف الجاد مرة كل عام على الأقل احتراماً لذكرى بدء تسجيل تاريخهم ، تاريخهم المجيد الذي ما عاد له من صدى في حياتهم المليئة بالأصوات والضجيج والفوضى إلى درجة تحرم الصدى من مسيره الطبيعي يتردد في أجواء صافية نظيفة.

الوهن الحضاري أصاب الأمة سياسياً واجتماعياً وإنسانياً بالفعل ولكنه وعلى الرغم من ذلك لم يستطع النيل من روحها ولا من عقيدتها ولا من رغبتها في الوقوف على قدميها من جديد ، كما أنه لم يؤثر على قدرتها العجيبة على الاستفادة من آليات التجديد الذاتي الذي تتمتع به من دون بقية أمم الأرض ، الشيء الذي يشهد له التاريخ والذي تذكره

الجغرافيا ، والذي تخشاه وكثيراً جموع المتربصين بثرواتنا الهائلة التي قد تنقلب بين عشية وضحاها الى أسلحة عمار إنساني شامل للإنسانية إن استطاعت هذه الأمة أن تأتي من الموت مرة أخرى كما اعتادت أن تفعل دوماً لتعيد كتابة التاريخ باللون الأخضر ولتحمل رسالتها الخالدة للإنسانية التائهة المعذبة التي تغرق اليوم في التوحش والتصحر وشهوة امتصاص الدماء .

في مستهل هذا العام الهجري الجديد الضائع بين أعوام الآخرين التي نسبنا أنفسنا إليها وبكينا عند وداعها وانتحبنا على فراقها واحتفلنا مع المحتفلين بها ، في مستهل هذا العام نحن بحاجة حقيقية للوقوف وقفة تأمل هادئة فيم آلت اليه أحوال هذه الأمة ، وهل ننتمي الى هذه الأمة ؟ وهل ما زلنا نريد الانتماء اليها ؟ وما هي شروط ومقومات هذا الانتماء ؟ وقبل ذلك وبعده إننا في حاجة ماسة إلى تحديد هوية هذه الأمة اليوم في مطلع القرن الواحد والعشرين الميلادي الذي بدأ ولادته بأحداث هائلة هزت العالم وما زالت وهي على علاقة وثيقة بهذه الأمة التي بلغت اليوم ١٤٢٥ عاماً وهي ما تزال في ريعان شبابها ، يشهد على ذلك احتلالها لصدر الأحداث الأهم والأخطر في حياة البشرية اليوم سلباً أو إيجاباً ، وتشهد على ذلك كل إحصائيات أعداد الشباب والمواليد فيها ، وتشهد على ذلك الأعداد غير الطبيعية من المقبلين على الاستشراق والاستعراب والإسلام في مختلف أنحاء العالم ، وتشهد على ذلك مع كل هذه الشواهد مؤشرات أسواق العملات وأسعار البترول والغاز الطبيعي في العالم .

أمة شابة ولكنها لا تتمع بالشباب فحسب بل تتمتع بحيوية هي موضع حسد التاريخ وحقد الجغرافيا وانتقام الأدب والفن والثقافة ، حية على الرغم من سيادة ثقافة الموت بين شبابها ، حية على الرغم من انتشار اليأس والإحباط بين صفوف الناس المحرومة من أدنى درجات الخدمات الإنسانية في حياتهم ، حية على الرغم من الاستبداد الذي ينتشر أفقياً وعمودياً أي بالطول والعرض في جميع شرائح وجودها السياسي والاجتماعي والأسري ، أمة حية قائمة تتحدى وتصارع الموت في كل مكان يصر الموت على الزحف فيه إليها .

حية على الرغم من السرطان الذي أصاب قلبها ، حية على الرغم من اجتماع الأكلة الى قصعاتها ، حية على الرغم من الوهن والهوان اللذان يلفانها .

اسألوا ريم الرياشي عن هذه الأمة ؟ اسألوا كتائب الأقصى عن هذه الأمة ؟ اسألوا حناجر فرقة الاعتصام عنها ، اسألوا فتيات وشباب الجاليات العربية والإسلامية المولودين في الغربة وهم يهتفون في عواصم العالم بالروح بالدم نفديك يا أقصى ، اسألوا المسجد الحرام يلم ويجمع العشاق من كل فجٍّ عميق أتوه يجددون ولاءهم لهذه الأمة وهذا التاريخ ، اسألوا رمضان المُصّر عاماً بعد عام على إثبات نظريته الخاصة عن وجود هذه الأمة وشبابها وحياتها وحيويتها وقدرتها على البقاء والثبات والاستمرار .

اسألوا كل صوت حرٍّ نظيف طاهر يغني للأمل على الرغم من اليأس ، اسألوا كل قلم مقاتل بالكلمات في زمن عواء الذئاب الجريحة ترابط على مداخل أوكارها تحمي صغارها بصدورها وتمنعهم من الموت صقيعا .

اسألوا "ياسين" الطفل المغربي الصغير بسنواته الستة والذي ولد وعاش كل حياته في مدريد والذي ذهب يحاول فتح باب بيته ذات فجر وقد حمل حقيبته على ظهره بعد أن حشى فيها أشياءه الخاصة ، فلما أن هبت أمه من نومها فزعة

وسألته : إلى أين أنت ذاهب يا ياسين : قال إلى القدس ، أسأعد أطفالها في رمي الحجارة! .

اسألوا عبد الرحمن السوري الذي عندما سألته المعلمة في مدرسته في جزر الكناري بسنواته الثمانية عن بلـــده وعاصمتها ورئيسها أجابها : أنا من بلاد العرب وعاصمتها القدس ورئيسنا حسن نصر اللّه وشيخنا القرضاوي! .

اسألوا محمداً الليبي ذو الثمانية عشرة عاماً عن إصراره على ارتداء ملابسه الوطنية يوم العيد في مدريد ثباتـــاً على هويته وانتمائه ، اسألوا كل مصري ولبناني وعراقي وسعودي ويمني وصومالي عن هذه الأمة وعن تاريخهـــا وعـــن حياتها وحيويتها ، لتجدوا لحمة وسدة زاخرة بالحياة والإرادة والأمل .

1425عاماً من الحياة ومن القدرة الهائلة على التجديد الذاتي وابتلاع الغرباء ، ١٤٢٥ من التـــاريخ بحلـــوه ومره برایاته البيضاء وأيامه السوداء ، تاريخ اسألوا عنه ابن كثير الدمشقي واقرؤوه مراراً وتكراراً حتى تعرفوا هويـــة هذه الأمة التي حشرها البعض ستين عاماً في متاهات الشعارات وادعاآت الثورات وركوب الموجات وقمع الـــشعوب وشنق الأحرار وسجن كل من سولت له نفسه قول كلمة يعتقدها حقاً أو همزة أو لمزة يخفف بها عن نفسه عناء القهر أو نكتة يحلي بها مرارة أيام الصبر .

1425عاماً من الهجرة المستمرة نحو الغد ، نحو المستقبل ، نحو العطاء ، نحو التغيير ، هجرات هائلة أحدثت في حياة البشرية انقلابات إنسانية وحضارية بالغة التأثير ، وذلك على الرغم من وهننا الحضاري في بعض الأحيان وتعبنـــا وارتكاسنا وتنكبنا عن حمل الرسالة حيناً ، واستسلامنا لمن تفرعن علينا أحيانا .

1425عاماً لا تعني الكثير في حياة الوجود التي تحسب بآلاف الملايين من الأعوام ولكنها على غاية من الأهمية في تاريخ الوجود الحضاري الإنساني الذي تركت فيه هذه الأمة بصماتها واضحة على كل شيء في هذه الحياة وفي حياة الإنسانية اليوم وذلك على الرغم من تعطش الإنسانية إلى هذه اليد التي لم تعرف منها إلا بصمتها الحضارية ، تعطشها إلى التعرف عليها ، إلى كشف الزيف عن التشويه اللاحق بها ، تعطشها إلى الخير ينصبّ منها ينبوع عطاء لا ينضب .

إنه عام هجري جديد يأتينا في زمن محنة وقهر واحتلال وسقوط ، سقطت بغداد ، وتسقط الحواري والشوارع المؤدية الى القدس ، وسقطت الشعارات التي حكمتنا بالحديد والدم والنار ستين عامـــاً ، ســـقط الثـــوار والرفـــاق ، وانكشفت الأقنعة عن كل الوجوه الرجعية والتقدمية والفوقية والتحتية ، واكتشفنا ضياع أموال الأمة وضياع قرن من حياة الأمة وضياع الهدف الرئيسي من وجود هذه الأمة ، ونحن نعيش اليوم أعلى مرتبة من مراتب انتشار صحوة هذه الأمة على هامش انتفاضة أهل الرباط في فلسطين المقدسة ، وصدقوني إن هذه الصحوة المتعطشة إلى قيـــادة وترشـــيد وتوجيه ، وتلك الانتفاضة المقدسة الموصولة بحبل من اللّه وحبل من قلوب المؤمنين بهذه الأمـــة ، صـــدقوني إن هـــذه الصحوة وهذه الانتفاضة هما أكبر علامة فارقة اليوم لهذه الأمة ، لوجودها ، وحيويتها ، وقدرتها على البعث والنـــشور

والوقوف على قدميها مرة أخرى من جديد ، لتثبت للتاريخ أنها أمة لا يمكن أن تموت هذا ما يقوله التاريخ وهـــذا مـــا يؤكده الإنسان وهذا ما يخيف الآخرين الذين لا نكرههم ولا نريد أن نكرهم وليست لدينا القدرة على كراهيتـــهم ، كل ما في الأمر أنهم أتونا غازين وذهبنا إليهم مهاجرين ، دعموا قتلة أنبيائنا وأطفالنا في القدس فذهب منا إليهم مـــن أرهبهم وهز كيانهم ، حوار أليم ونزاع لن تنهيه قوة الجيوش ولا استكبار القوة في الأرض ، حوار بين ١٤٢٥ عاماً من حضارة قاهرة بالكلمة والحق وثبات الإنسان وقدرته المذهلة على التغلب على ثقافة حب الموت لأنه وحده الذي ينتمي إلى أمة طالما طلبت الموت لتوهب لها الحياة .